جمعية المقاومين التونسيين

المؤتمر الأول – 10 أفريل 2016 –

كلمة السيد حامد الزغل رئيس جمعية المقاومين التونسيين

سيدي كمال الجندوبي، وزير العلاقة مع المنظمات الدستورية والمجتمع المدني،

إنَّ جمعية المقاومين التونسيين من أجل الاستقلال تشكركم على تفضلكم بالإشراف على الجلسة الافتتاحية لمؤتمرها. ففي وجودكم معنا دليل على الترابط المنسجم بين جيل الثورة الأولى، الثورة ضد الاستعمار، وجيل الثورة الثانية، الثورة ضد الاستبداد.

سادتي الذين شاركتم بامتياز في بناء دعائم الدولة التونسية، بعد أن ناضلتم من أجل الاستقلال. سيداتي وسادتي ممثلي المنظمات الوطنية والمؤسسات الإعلامية. باسم جمعية المقاومين التونسيين، أشكركم جميعا على تلبيتكم دعوتنا. ففي حضورِكم معنا في مؤتمرنا الأول تشجيع ودعم لجمعيتنا.

إخواني وأخواتي المقاومين، اسمحوا لي أن أترك جانبا الحديث عن استحقاقاتكم واستحقاقات أرامل المقاومين والشهداء و أبنائهم، لأنكم مثلي تعتبرونها زهيدة، مقارنة بحق الوطن علينا. اسمحوا لي إذن أن أتكلم عن ماضينا بمنظار الحاضر، وأن أبدي بعض الخواطر حول حاضر تونس ومستقبلها بالرجوع إلى تجارب الماضي.

كنا مراهقين أو شبانا في أربعينات وخمسينات القرن الماضي. اندفعنا في ثورة التحرير دون أن ننتظر تحرك المغرب أو الجزائر. كانت تقابلنا قوات فرنسية، من بينها فوج من اللفيف الأجنبي وثلاثة أفواج من المظليين قدِمت كلها من الجزائر. وصل عددُ جنود الاحتلال إلى مائتين وخمسين ألف جندي، تضاف إليهم قوات البوليس، وميليشيات اليد الحمراء، ومختلف المتطوعين من الجالية الفرنسية.

كنا ندرك التفاوت الكبير بين إمكاناتنا وقوات العدو. لكننا كنا مقتنعين بالإستراتيجية البورقيبية التي تعتمد على الاضطرابات في تونس وعلى رد فعل سلطات الحماية من قمع وبطش، لتَدَخُّل الأمم المتحدة في قضيتنا. ويُحدث هذا التدخل حماسا فينا وإصرارا منا على الصمود. فيقع تفاعل إيجابي بين الثورة في تونس والضغط على فرنسا في نيويورك. ويكون هذا الضغط أشدَّ وقعا عندما تساندنا دول كبرى حليفةٌ لفرنسا من جهة، ونتقدم بمطلب معتدل، وهو الاستقلال الداخلي من جهة أخرى. فبفضل هذه العوامل الثلاثة: المقاومة الشعبية والمساعدة الدولية وحكمة القيادة، أمكن لتونس أن تنتزع استقلالها الداخلي، ثم استقلالها التام.

في نفس اليوم الذي تم فيه الإعلان عن الاستقلال، خاطب المجاهد الأكبر شعبه قائلا: "إننا خرجنا من الجهاد الأصغر ودخلنا مرحلة الجهاد الأكبر قصد اللحاق بركب الحضارة." و أضاف أن عملا طويلا ينتظرنا. وهو يستهدف صعود تونس إلى مستوى الدول المتقدمة، ضمانا لعدم رجوع الاستعمار.

و شرعنا في مقاومة التخلف، سائرين نحو الهدف الأسمى الجديد. كنا نعلم أنه بعيدُ المنال، وأن العقبات في طريقه كبيرةٌ متنوعة، خاصة في فجر الاستقلال. في تلك السنين، لا يزال الجيش الفرنسي مرابطا في أرضنا، والجيش الجزائري بصدد الاستقرار على الحدود. وكان شتاء سنة 55 – 56 قاسيا بصفة غير معتادة. فاستفحل الجوع، وكثر عدد الأطفال المشردين، وانتشرت البطالة بصورة مهولة. ومن جهة أخرى، سلك الفرنسيون المقيمون ببلادنا سياسة الأرض المحروقة. غادر معظم الفنيين الفرنسيين تونس تعجيزا للنظام الجديد. وهرّب الفرنسيون رؤوس الأموال بأحجام تتزايد من سنة إلى أخرى. وأمسكت الشركات الفرنسية عن الاستثمار، ونزل حجم الأسمدة في أراضي المعمرين.

رغم كل هذا، صدرت مجلة الأحوال الشخصية. وبنيت المدارس في كل مكان، مع الحرص على أن يكون التعليم عصريا، من شأنه أن يُفتِّح عقولَ أبنائنا وبناتنا. ثم تحقق جلاء الجنود والمعمرين الفرنسيين من الأراضي التونسية.

في المجال الاقتصادي، لم يكن بورقيبة لا يمينيا ولا يساريا ولا وسطيا. كان همه النجاعة ولو باتخاذ وسائل متطرفة. لم يكن حبيس النظريات، خاصة عندما تقسم الشعب إلى فئتين متناقضتين فمتصارعتين. كان يحبذ ما أسماه بالاقتصاد المتضامن. لذلك استهوته فكرة التعاضديات، فتبناها. لكنه أدرك بعد تجارب أنها غيرُ مجدية في ظروف تونس. فتركها.

وتقدمت تونس أشواطا في طريقها نحو الهدف الأسمى. لكن المسيرة تعطلت بسبب شيخوخة بورقيبة ومرضه الطويل. و تفاقم الأمر في نظام بن علي الذي كان يتبجح بأنه أحدث معجزة في المجال الاقتصادي، لأن النمو وصل إلى 5 في المائة. و الحقيقة أن الهوة الاقتصادية بين تونس والاتحاد الأوروبي أخذت في الاتساع. و من الضروري أن يتجاوز النمو 7 في المائة لتقليص الفارق بين تونس و الدول الأوروبية.

واستبشرنا خيرا بثورة 17 ديسمبر – 14 جانفي. وشاهدنا على شاشات التلفزة شبابا تبدو من خلال تحاليله كفاءتُه وقدرته. فشعرنا بالاطمئنان على مصير تونس. و قلنا إن بلادنا ستشرع من جديد في السير نحو اللحاق بركب الأمم المتقدمة، وسيكون التقليص من البطالة ومن الاختلال التنموي بين الجهات هدفا مرحليا في الطريق نحو الهدف الأسمى. لكن ضيّعنا أربع سنين حدثت خلالها اغتيالات سياسية، وبرزت عقول جامدة، وتواجد إرهابيون في الجبال والمدن، وتداولت حكومات وقتية. فلم تنطلق مسيرة التقدم نحو الهدف المنشود.

و لما تمت الانتخابات التشريعية والرئاسية، قلنا إن السير سوف يُستأنف بسرعة. وسوف تُسن الإصلاحات الضرورية، و يُعدُّ مخططٌ تنموي يندرج في إطار نظرة استشرافية، وينسجم مع هدفنا الأسمى. ولكن، وبمجرد أن تولت الحكومة

السلطة، اندلعت اضطرابات في أماكن مختلفة. ولم تتصل أحزاب الائتلاف الحاكم بالشعب لإقناعه بأن الحكومة ترمي فعلا إلى التقليص من البطالة و من الاختلال الجهوي. وكانت صدمتُنا قوية من تصرفات بعض الساسة.

نأمل أن يشعروأ في آخر الأمر أن مسؤوليتهم كبرى، إذ أنهم نُخبةُ جيل الثورة الثانية. ونأمل أيضا أن يُدركوا أن الاختلال بين الجهات وتفاقم البطالة هما بمثابة الشجرة التي تُخفي الغاب. فالاختلال التنموي بين تونس والدول المتقدمة هو أكبر وأعظم. جامعاتنا في مؤخرة قائمة الجامعات في العالم، و معدل دخل المواطن التونسي هو حاليا عشر مرات أقل من معدل دخل الفرنسي. و من الضروري أن يرتفع معدل نمونا إلى 7 أو 8 في المائة طوال سنوات عديدة، كي تضيقَ الهوة التنموية بيننا وبين أوروبا، ونقضيَ في نفس الوقت على تراكم البطالة والاختلال بين الجهات.

لا شك أن معدل النمو المطلوب ليس يسير المنال. وقد نجد انهزاميين يؤكدون أن الوصول إليه مستحيل. ليتأملوا في كوريا الجنوبية. كان متوسط دخل المواطن الكوري يساوي متوسط دخل التونسي في منتصف القرن الماضي. أما اليوم، فإن الإنتاج الصناعي لكوريا الجنوبية يغزو كافة دول العالم. يقول الشكاكون أننا لا نقدر على مقاومة التخلف ومقاومة الإرهاب في نفس الوقت. نجيب أن كوريا الجنوبية تخوض منذ عشرات السنين حربا ضد جارتها الشمالية، وهذا لم يمنعها من التقدم في كل المجالات. عرفنا أيضا في عهد الاستعمار شكاكين وانهزاميين. كانوا يستهزئون منا قائلين : "الدساترة يريدون هدم الجبل بقادوم".

وهدّمنا الجبل. وظهر أن طينة التونسي لا تختلف عن طينة الكوري الجنوبي. فقد كنا في محيطنا المغاربي والإفريقي سباقين في خوض معركة التحرير. وكنا سباقين في سن مجلة الأحوال الشخصية. وكنا في العالم العربي سباقين في الثورة ضد الاستبداد. لنكن أيضا سباقين في انتصارنا على التخلف والإرهاب.

لن أتكلم في آخر كلمتي عن الإرهاب. فإن شعبنا ودولتنا سيقضيان عليه لا محالة. أمّا التخلف، فإن مقاومته تستدعي جهادا أكبر و أطول، وتضافُرَ العوامل الثلاثة التي انتصرنا بها في معركة التحرير: وهي الجهد الوطني، والعون الخارجي، وحكمة القيادة.

ففي الإطار الوطني، ينبغي قبل كل شيء أن يكون الشعب التونسي واعيا بأهمية الهدف الأسمى، وأن يتجند في سبيل تحقيقه، مثلما أجمع في عهد الاستعمار على مطلب الاستقلال، وتجند من أجله. لكن الوصول إلى معدل نمو بين 7 و 8 في المائة يتطلب في نظري توفر ثلاثة شروط إضافية استثنائية.

أولا: قد يكون من مصلحة الوطن العليا أن يفكر كلٌّ من الاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة في المشاركة في الحكومة، وفي مداولاتها وقراراتها، مثلما كانا موجودَين في حكومة بورقيبة الأولى.

ثانيا : إن الوصول إلى معدل نمو مرتفع يستدعي عدمَ توقف الإنتاج. ففي خسارة مثقال ذرة من الإنتاج إساءةٌ للوطن. لا يشك أحد في سوء حالة البطالين. كما لا يشك أحد في أن ظروف تونس الحالية لا تيسر الحل السريع لمشاكل البطالة. وهذا تعلمه الفئات الضعيفة، وتعلم أنها مدعوة إلى التضحية والتحلي بالصبر.

ثالثا : في المقابل، ندعو أصحاب رؤوس الأموال إلى أن يبادروا بإحداث المشاريع التنموية في الجهات المهمشة، دون أن ينتظروا توفر المناخ الجيد. نقر أننا نرغب منهم أن يجازفوا. لكنَّ في هذه المجازفة نصيبَهم من التضحية. لينسجوا على منوال رجل الأعمال الذي أحدث مشروعا في منطقة نائية، فوجد من سكانها الترحاب والحماية.

أما من الخارج، فبالإضافة إلى استثمارات ضخمة، نحن في حاجة إلى هبات مالية كبيرة لفائدة ميزانية الدولة، حتى نضاعف النفقات لفائدة التعليم والبحث العلمي والثقافة، ونحوِّل العقولَ الجامدة إلى عقول منفتحة. لكن ما وصل إلى تونس من هبات منذ اندلاع ثورة الحرية والكرامة هو دون آمالنا. نحن في حاجة إلى دعم مالي في مستوى برنامج مرشال، الذي تلقته دول أوروبا الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية. كان ذلك غداة الحرب العالمية الثانية. وقتها كانت فرنسا مثلا في حالة خراب. وكان الشيوعيون يمثلون فيها تيارا قويا يعمل على جر البلاد إلى المعسكر السوفياتي. لكنّ الحكومة الفرنسية تغلبت على الجموع الموالية إلى موسكو، و انضمت إلى الحلف الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة، مقابل الاستفادة من "برنامج مرشال"، الذي مكن من إعادة بناء فرنسا في وقت قصير.

حكمة القيادة : هذا المعطى التاريخي يبين أن العلاقات بين الدول تحكمها المصالح. لذلك يستبعد أن نحصل على دعم مالي ضخم يستجيب لحاجاتنا دون مقابل. وهنا تأتي حكمة القيادة التي تعرف كيف تُغلِّب العقل على العاطفة، وتقدِّم الأهم على المهم، وتُوازن بين الأخذ والعطاء، حتى يكون ما نأخذه أهمَّ بالنسبة إلينا مما نعطيه، ونضمنَ حقا لأحفادنا وأبناء أحفادنا مستوى جيرانِنا الأوروبيين في كل المجالات. هذا ما نطمح إليه – نحن المقاومون – لفائدة شعبنا، ونحن اليوم على قاب قوسين أو أدنى من الالتحاق بالرفيق الأعلى. نرغب بكل جوارحنا أن يضع الجيلُ الحالي هدفَ الالتحاق بركب الحضارة نصب عينيه، وأن يسير بثبات في سبيل تحقيقه، حتى تكون تونِسُنا حقا حرة مستقلة كريمة إلى الأبد.

حامد الزغل **الهاتف: 22946726**